التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

إعداد

الدكتور الحافظ عبد الرحيم محمد حنيف *

السيدة صبيحة عبد القدوس♥

مفهوم التفسير الإشاري:

هــو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكــن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضا. ويقال له التفسير الفيضي وتفسير الصوفية.

فإذا دار المفسرون في حدود اللفظ القرآني، واستنبط منه الأسرار والحقائق مالا ينكشف لسواهم ولا يدركه غيرهم. وذلك لتجدد واردات الحق لهم ودوام تنزل فيوضات على قلوبهم، لأنهم أهله ومحبوه.

وفيض الله المتجدد في كلامه لهم لما يزيد في كمال إعجاز القرآن ويؤكد أن إعجــازه أســمى من أن يكون في فصاحة لفظه وقوة أثره وبلاغة أسلوبه وإنما إعجــازه فــوق ذلك في أسراره ومعانية ومراده ومراميه. وأهل الله أولى الناس بــتفهم مراده ومعرفة مرامى كلامه. ومن ثم كان ما ينكشف لهم في كلام الله من أسرار بمثابة إشارات لهم وحدهم لأن الإشارة لغة المحب مع المحبوب، والإشارة

---

* - أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية وآدابها جامعة بهاء الدين زكريا ملتان.

♥- ماجستير الفلسفة في اللغة العربية وآدابها.

بعد ذلك تلويح للمراد لا إفصاح عند لعدم قدرة الألفاظ على تحمل المراد. لأن تعدد مـــا يشـــيرون إلـــيه، ومـــا يشيرون إليه يكون عن مشاهدة، وما يشاهدونه ليس بمحـــدود، إذ هو من عالم الغيوب، فلا اللفظ قادر على تحديد المراد ولا قابليات المعقول تطيق ذلك، ومن ثم سميت مذاقاتهم في القرآن إشارات ولم تسع تفسيرا.[1]

فـــأهل التحقيق أو الصوفية بعد إقرار التفسير الظاهر وأنه الأصل الذي نزل فيه القرآن، ولكن لهم في كلام الله مع الأخذ بهذا التفسير الظاهري مذاقات يمكنهم إغفالها لأنها بمثابة واردات أو هواتف من الحق لهم.

من هنا مذاقات الصوفية وأهل الإشارات في القرآن الكريم وفهم مراده. وهم لا يرون أن تلك المذاقات وحدها هي المرادة، وأنها يأخذونها إشارات من الله لهم بعـــد إقـــرار ما قاله أهل الظاهر من تفسير باعتبارهم أهل التشريع، على أن تلك الإشارات أمر مشروع أقرّه الحديث:

''إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا.''[2]

ولـــم يكـــن هذا التفسير الإشاري بأمر جديد في إبراز معاني القرآن الكريم ومفاهـــيمه، بـــل هـــو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله ﷺ كما أشار القرآن الكريم ونبه عليه محمد ﷺ وعرفة الصحابة رضوان الله تعالى أجمعين.

الاستشهاد بالقرآن الكريم:

قال الله تعالى:

﴿ فَمَالِ هٰؤُلَآءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ حَدِيْثًا ﴾ [3]

---

[1] – القشيري، عبد الكريم بن هو ابن أبو القاسم: لطائف الإشارات تحقيق د. إبراهيم بسيوني: يار الكتاب العربي بالقاهرة. مقدمة ص ٦.

[2] – الغزالي، محمد بن محمد م ٥٠٥هـ: إحياء علوم الدين، دار الندوة الجديدة بيروت. كتاب قواعد العقائد ١/١١٩.

[3] – سورة النساء آية ٧٨.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُوْنَ القرآنَ ﴾ [1]

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُوْنَ القرآنَ أَمْ عَلى قُلُوْبِهِمْ أَقْفَالُهَا﴾ [2]

هذه الآيات الشريفة كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر وباطن وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا، ويعضهم على التدبر في فهم ظاهره ولاشك، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم.[3]

الاستشهاد بالحديث النبوي:

وأما الأحاديث التي نبه فيها النبي ﷺ إلى ذلك ما قال الفريابى من رواية الحسن أنه قال رسول الله: ''لِكُلِّ آيةٍ ظَهَرٌ وبَطَنٌ ولِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ ولِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ''[4]

وما أخرجه الديلمي من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعًا: ''القُرْآنُ تَحْتَ العَرْشِ له ظَهَرٌ وبَطَنٌ وبَطَنٌ يحَاجُّ العبادَ''[5].

يصرح هذان الحديثان بأن القرآن له ظهرٌ وبطن ولكن في معنى الظهر والبطن أوجه:

الأول: أن ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها [6].

---

[1] – سورة النساء آية ٨٢.

[2] – سورة محمد آية ٢٤.

[3] – الشاطبي، أبو إسحاق: الموافقات، المكتبة التجارية٣/٣٨٢.

[4] – الغزالي إحياء العلوم ١/١١٩، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن الإتقان في علوم القرآن، منشورات رضي، بيدار٤/ ٢٢٦، الذهبي، الدكتور محمد حسين: التفسير والمفسرون دار إحياء التراث العربي بيروت ٢/٣٥٣.

[5] – راجع إلى السابق.

[6] – السيوطي، الإتقان٤/٢٢٦.

والثاني: ضال أبو عبيد إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به، ظاهره بهلاك الأولين، إنما هو حديث حدّث به عن قوْم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا فعلهم، فيحل بهم مثل ماحل بهم. [1]

والثالث: حكى ابن النقيب: إن ظهرها معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي اطلع الله عليها أرباب الحقائق، ومعنى قوله: ''ولكل حرف حدّ '' أي منتهى، فيما أراد الله من معناه، وقيل: لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب، ومعنى قوله ''ولكل حد مطلع'' لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع يتوصل إلى معرفته، ويوقف على المراد به. [2]

والرابع: قال بعضهم: الطاهر التلاوة والباطن الفهم، والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع الإشراف على الوعد والوعيد. [3]

والحديث الآخر في جواز التفسير الإشاري ما قال ابن مسعود:

'' من أرَادَ عِلْمَ الأوَّلِيْنَ والآخَرِيْنَ فَلْيُثوِّر القُرْآن ''

قيل: هذا الذي لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر. [4]

أما الروايات الدالة على أن الصحابة فسروا القرآن تفسيرا إشاريا. فما رواه البخاري عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال ''كان يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فادخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم قال:

---

[1] – المصدر السابق.
[2] – المصدر السابق.
[3] – المصدر السابق.
[4] – المصدر السابق، والغزالي، إحياء العلوم ١/١١١باب فهم القرآن.

ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إذا جاء نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ﴾[1]، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفر إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت لا قال فما تقول ؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له إذا جاء نصر الله والفتح، وذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّابا، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول[2].

فحبر الأمة سيدنا ابن عباس رضى الله عنهما فهم المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريق الإشارة.

والمثال الآخر هو إذا نزلت قوله تعالى:

﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِيْ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإسْلَامَ دِيْنًا﴾[3].

فرح الصحابة وبكى عمر وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرا عن النبي ﷺ.

هذه الأدلة كلها تفيد أن القرآن الكريم له ظهر يفهمه كل من يعرف اللغة العربية، وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصيرة.

آراء العلماء في التفسير الإشاري:

ينقسم العلماء إلى طائفتين – طائفة يجوز التفسير الإشاري والآخر ينكر هذا.

قال النسفي في عقائده:

---

[1] – سورة النصر آية ١.

[2] – البخاري، محمد بن إسماعيل م ٢٥٦ هـ صحيح البخاري دارا إحياء التراث العربي بيروت تفسير سورة النصر ٢/٢٢٠.

[3] – سورة المائدة آية ٥.

"النصوص على ظاهرها، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد. قـــال التفتازانـــي في شرحه: سميت الملاحدة باطنية لادّعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها، بل لها معان باطنية لا يعرفها إلا المعلم وقصدهم بذلك نفي الشرعية بالكلية.

قال: وأما يذهب إليه بعض المحققين من أنّ النصوص على ظواهرها و مع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان[1].

وقال ابن الصلاح في فتاويه: وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال:

"صـــنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق في التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر"[2].

قال الزركشي:

"كـــلام الصـــوفية فـــي تفســـير القرآن قيل إنه ليس بتفسير وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة" [3].

وقـــال بعض العلماء: لكل آية مستون فهم، فهذا يدلّ على أن في فهم معاني القـــرآن مجـــالا رحبا، ومتسعا بالفا، وأن المنقول من ظاهر التفسير وليس ينتفي الإدراك فـــيه بالنقل، والسماع لا بدمنه في ظاهر التفسير ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط، ولا يجوز التهاون في حفظ التفسير الظاهر بل

---

[1] – السيوطي، الإتقان: ٤/٢٢٤، والزرقاني، الشيخ عبد العظيم مناهل العرفان دارا إحياء التراث العربي بيروت ١/٥٤٧.

[2] – الزرقاني، مناهل العرفان ١/٥٤٧.

[3] – الزركشي، محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن دار إحياء التراث العربي بيروت: ٢/١٧٠.

لا بدمـــنه أوّلاً، إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل أحكام الظاهر، ومن ادعى فهـــم أســـرار القرآن، ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن ادّعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب.[1]

نقل السيوطي عن ابن عطاء الله الاسكندري: أنه قال:

''أعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني العربية ليس إحالـــة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له، ودلت علـــيه فـــي عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه".

وقـــد جـــاء في الحديث: ''ولكل آية ظهر وبطن'' فلا يصدّنك عن تلقى هذه المعانـــي منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله، فلـــيس ذاك بإحالـــة، وإنمـــا يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهك لم يقولـــوا ذلك، بل يقرءون الظواهر على ظواهرها مرادًا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم.[2]

الحاصل أن هناك فرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الإشاري وبين تفســـير الباطنـــية الملاحدة. فالصوفية لا يمنعون إرادة الظاهر وتفسيرهم جائز و مقبول.

أما الباطنية فإنهم يقولون:

"إن الظاهـــر غير المراد أصلا وإنما المراد الباطن وقصدهم تفي الشرعية: فتفسيرهم ليس بمقبول ولاشك أن ذلك في ميزان الشريعة الإسلامية ضلال وإلحاد.

---

[1] – السيوطي، الإتقان ٤/٢٢٦.

[2] – المصدر السابق :٤/٢٢٧

شروط قبول التفسير الإشاري:

من أجاز التفسير الإشاري، يجعلون لقبوله شروطا وهي:

١- ألا يتنافى ما يظهر من معنى النظم الكريم.

٢- ألا يدعي أنه المراد وحده دون الظاهر.

٣- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

٤- أن يكون له شاهي شرعي يؤيده.

هنا تجدر بالإشارة إلى أن هذه شروط لقبوله بمعنى عدم رفضه، وليست شروطا لوجوب اتباعه والأخذ به. ذلك لأنه لا يتنافى وظاهر القرآن، ثم إن له شاهد يعضده من الشرع وكل ما كان كذلك لا يرفض. وإنما لم يجب الأخذ به لأن النظم الكريم لم يوضع للدلالة عليه، بل هو من قبيل الإلهامات التي تلوح لأصحابها غير منضبطة بلغة ولا مقيدة بقوانين. [١]

أهم كتب التفسير الإشاري:

قال الزرقاني: أهم كتب التفسير الإشاري أربعة.

١- تفسير النيسابوري. ٢- تفسير التستري.

٣- تفسير محي الدين ابن عربي. ٤- تفسير الألوسي. [٢]

تعريف تفسير النيسابوري:

يمتاز هذا التفسير بسهولة عبارته، وبتحقيق ما يحتاج إلى تحقيق، مع قصد وخلو من الحشو وقد عني بأمرين يلتزمهما: الكلام على القراءات والأوقف

---

[١] - الزرقاني، مناهل العرفان ١/٥٤٩.

[٢] - المصدر السابق ١/٥٥٠،

فـــي أوّل كل مرحلة من مراحل التفسير.والكلام على التأويل الإشاري في آخر كل مرحلة من تلك المراحل. وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير.

فهـــو يســـوق المعـــنى الإشاري تحت العنوان: قال أهل الإشارة أو يقول (التأويل) ومثال ذلك أنه قال بعد قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيْهَا اسْمُهُ﴾[1] ما نصه: (التأويل) مساجد الله التي يذكر فيها اسمه عند أهـــل الـــنظر، النفس، والقلب والروح، والسر، والخفي وهو سر السر. وذكر كل مســـجد منها مناسب لذلك المسجد. فذكر مسجد النفس الطاعات والعبادات، ومنع الذكـــر فيه بترك الحسنات وملازمة السيِّئات. وذكر مسجد القلب التوحيد والمعرفة ومـــنع الذكـــر فـــيه بالتمسك بالمشبهات، والتعلق بالشهوات، فإن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها عنى محجوبة. وذكر مسجد الروح بالشوق والمحبة ومنع الذكر فـــيه بـــالحظوظ والمسكنات. وذكر مسجد سر المراقبة والشهود، ومنع الذكر فيه بالـــركون إلى الكرامات. وذكر مسجد الخفي وهو سبر السر، بذل الوجود، وترك الموجود، ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات''الخ [2].

تعريف تفسير التستري:

هـــو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري المتوفى سنة ٣٨٣هـــ. وتفسيره هـــذا لم يستوعب كل الآيات، وإن استوعب السور. وقد سلك فيه مسلك الصوفية مع موافقته لأهل الظاهر. ونموذجا منه إذ يقول في تفسير البسملة ما نصه:

" (البا) بهاء الله عز وجل (والسين) سناء الله عز وجل، (والميم) مجد الله عز وجل (والله) هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها وبين الألف واللام منه حرف مكني غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة،

---

[1] – سورة البقرة آية ١١٤.

[2] – الزرقاني، مناهل العرفان ١/٥٣٦-٥٥٢.

لا ينال فهمه إلا الظاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قواما ضرورة الإيمان (والرحمن) اسم فيه خاصة من الحرف المسكنى بين الألف واللام (والرحيم) هو العاطف على عبادة بالرزق في الفرع، والابتداء في الأصل رحمة لسابق علمه القديم".

قال أبو بكر: أي بنسيم روح الله اخترع من ملكه ما شاء رحمة لأنه رحيم. وقال علي ابن أبى طالب رضى الله عنه: الرحمن والرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر ، فنفى الله بهما القنوط عن المؤمنين من عباده. [1]

تعريف تفسير ابن عربي:

هو محي الدين ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ. وتفسيره ''تفسير القرآن الكريم'' طبع في مجلدين ونموذج من تفسير للتفسير الإشاري أنه قال في تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أن تذبحوا بَقَرَةً﴾

ا نصه ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ هي النفس الحيوانية، وذبحها قمع هواها الذي هو حياتها ومنبعها من الأفعال الخاصة بها بشفرة سكين الرياضة. [2]

تعريف تفسير الآلوسي:

روح المعاني للعلامة المحقق شهاب الدين السيد محمد الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ. وهذا التفسير من أجل التفاسير وأوسعها وأجمعها. نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة، وألف فيه بين ما يفهم بطريق العبارة وما يفهم بطريق الإشارة.

---

[1] – المصدر السابق ١/٥٥٣ – ٥٥٤.

[2] – المصدر السابق ١/٥٥٦.

يسوق المعنى الإشاري بعنوان (من باب الإشارة) كما قال بعد تفسير ﴿وإذ قلتم يا موسى﴾ الخ: وإذ قلتم يا موسى القلب، لن نؤمن الإيمان الحقيقي حتى نصل إلى مقام المشاهدة والعيان فأخذتكم صاعقة الموت الذي هو الفناء في التجلي الذاتي وأنتم تراقبون أو تشاهدون[1].

هذه الكتب الأربعة التي عدّها الزرقاني من أهم كتب التفسير الإشاري. ولكن الدكـــتور محمد حسين الذهبي يذكر في هذا النوع من التفسير التي وجه أصحابها فيها كل عنايتهم نحو التفسير الإشاري ومنها:

حقائق التفسير:

لأبـــي عـــبد الرحمن السلمي المتوفى ٤١٢هـــ كان شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان له اليد الطولي في التصوف والسير على سنن السلف.

وعرائس البيان في حقائق القرآن:

لأبي محمد الشيرازي المتوفى ٦٦٦هـــ سار فيه على منهج التفسير الإشاري ولد يتعرض للتفسير الظاهر وإن كان يعتقد أنه لابد منه أوّلا.

والتأويلات النجمية:

ألفه نجم الدين داية المتوفى٦٥٤ هـــ ومات قبل أن يتمه فأكمله علاء الدين السمنانى المتوفى ٧٣٦ هـــ بعده.

وكشف الأسرار وعدة الأبرار:

للشيخ رشيد الدين أبو الفضل المبيدي وهو من علماء القرن السادس الهجري. ويكاد يكون هذا التفسير الجامع الوحيد للقرآن الكريم باللغة الفارسية

---

[1] – الزرقاني، مناهل العرفان ١/٥٥٢.

الذي ألفه عالم من علماء أهل السنة والجماعة. وهذا التفسير من أشهر التفاسير المتداولة الأخرى التي كتبت بالفارسية لدى أهل السنة.

رأي الزرقاني:

بعد الكلام على هنا النوع من التفسير يأتي الشيخ محمد الزرقاني بنصيحة خالصة وهي:

بيد أن هذا التفسير جاء كله على هذا النمط دون أن يتعرض لبيان المعنى الوضعية للنصوص القرآنية وهنا الخطر كل الخطر. وهو أن يفهم أن هذه المعاني الإشارية هي مراد الخالق لهداية الخلق وإرشادهم.

فدخل في روعهم أن تعاليم الإسلام كله ماهي إلا سوانح و واردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات وأن المطلوب منهم هو الشطح ولم يتقيد التكاليف الشريعة ولم يحترموا القوانين اللغة العربية وأنهم يتخيلون أو يخيل إليهم أن أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية اتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكاليف.

فينصح للمسلمين أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التكاسير لأنها كلها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط والتقييد، وكثير ما يختلط الخيال بالحقيقة، والحق بالباطل فالأحرى بالفطن العاقل أن يتقى هذه المزالق لأنه قال. (دَعْ مَا يُرِيْبُكَ إلى مَالا يُرِيْبُكَ). [1]

نسأل الله تعالى أن يخرجنا من ظلمات الأوهام وأن يحققنا بحقائق الدين وتعاليم الإسلام. (آمين)..

---

[1] – المصدر السابق ١/٥٥٨.